

دلالة ثقل صحيفة الأعمال وأثره في سعادتنا أو شقائنا

ما معنى ثقل صحيفة الأعمال، وكيف يمكن قياس أمر غير مادي؟

تُعتبر صحيفة الأعمال وثقلها من المفاهيم التي تثير على الدوام تساؤلات جوهرية. فعلى سبيل المثال، كيف يمكننا قياس الأمور المرتبطة بالروح والجانب المجرد من الوجود؟ وما هي المعايير والمقاييس التي نعتمدها في هذا التقييم؟ لقد استعرضنا في دراساتنا السابقة مفهوم "الميزان"، وأشرنا إلى أن الله جل وعلا قد خلق كل شيء وفق نظام رياضي دقيق، وجعل لكل شيء عدداً ومقداراً مناسباً؛ بحيث أن أي نقص أو زيادة عن هذا القدر المقدر يؤدي إلى اختلال وعناء. فمثلاً، ولتوضيح هذه الفكرة، نتأمل حالة الجنين عند ولادته؛ فسلامته أو عدمها تُقاس بمعايير هذا العالم الأرضي؛ أي أن الظروف البيئية والحي للدينا، تحدد الكيفية التي يولد بها هذا الوليد: سليماً قوياً، سليماً فحسب، ضعيفاً، مريضاً، أو ناقص النمو. نحن عادةً ما نطلق على الوليد صفة "السليم" إذا استوفى الحد الأدنى من المعايير الحياتية الدنيا، بحيث لا يحتاج إلى حاضنات أو أجهزة دعم خاصة، ويكون قادراً على التفاعل مع ظروف العالم المحيط به والتمتع بها بيسر. وعندما تستطيع عين المولود وأذنه وقلبه وبقية أعضائه أن تتواصل بشكل صحيح ومنتظم مع الأطوال الموجية والترددات الهوائية وسائر الظروف البيئية المحيطة، يُقال اصطلاحاً إن هذا المولود قد استكمل جميع "موازينه" الحيوية. وبالمثل تماماً، فإننا في مسيرتنا نحو الخلود والدار الآخرة، سنسلك هذا المنوال نفسه. فكل واحد منا، بعد انتقاله من هذه الحياة إلى الآخرة، سيخضع للتقييم والفحص وفقاً لشروطها الحياتية التي تفوق اتساعاً وعظمةً حدود هذا العالم. فجميع علاقاتنا وخياراتنا وأفكارنا وسلوكياتنا ستُوزن بمقاييس ومعايير محددة سلفاً، والتي قُدمت لنا كنماذج وموازن نهتدي به.

وقد ذكرنا سابقًا أن المعيار في يوم القيامة هو "الحق"، وأن المظهر الكامل للحق هو النبي وأهل بيته (عليهم السلام)، لذا تُقاس أعمالنا بأكمل صورة للعمل الإنساني. وكلما اقترب العمل من الحق، ازدادت قيمته ومكانته؛ فالحق هنا لا يعني مجرد العلم، بل هو امتلاك حقيقة وملكات في النفس، ومن ثم، فكلما كانت علاقتنا الوجودية بالحق أعمق، كانت صحيفة أعمالنا أثقل. إن ما يُضفي الثقل على صحيفة الأعمال هو حسناتنا وأعمالنا الصالحة؛ أمّا الأعمال السيئة، فبما أنها باطلة محضة، فهي خفيفة بلا وزن ولا قيمة. بناءً على ما سبق، قد تطرأ على أذهانكم هذه الأسئلة:

• كيف يمكننا أن نعرف إن كانت صحيفة أعمالنا ثقيلة ذات وزن أم خفيفة لا قيمة لها؟

• ما العلاقة بين ثقل العمل وسعادتنا أو شقائنا؟

• وما هي الأعمال التي تُثقل ميزاننا وتزيد من وزن صحيفتنا؟

إن كنتم متشوقين لمعرفة إجابات هذه الأسئلة، فتابعونا.

ثقل صحيفة الأعمال وضرورة امتلاك روح متوازنة

كما ذكرنا سابقًا، فإن أعمالنا ستوزن أعمالنا بميزان الحق الذي هو عين التوافق التام مع النموذج الإنساني الأسمى، وسيُكشف عن مدى انسجامنا مع هذا المثل الأعلى. كلٌّ من كان له نصيب أكبر من الحق، أي من كانت له صلة وجودية أعمق بأسماء الله ومظاهرها، وهم أهل البيت (عليهم السلام)، فسيكون في الآخرة أكثر سعادةً ورضى؛ وأما من كان نصيبه أقل، سوف يقاسي العذاب والمعاناة بسبب عدم انسجامه مع طبيعة الحياة الآخرة وظروفها.^٢

ويجدر الانتباه إلى أن ثقل صحيفة الأعمال لا علاقة له بالشهادات الأكاديمية، أو المنازل الفارهة، أو الجمال الظاهري، أو الملابس الأنيقة، أو كمية الذهب والمجوهرات؛ بل المقصود بالثقل هنا هو أن تكون الروح، أي الجانب الإنساني فينا، غنياً وذا قيمة. فنحن لكي ندخل إلى البيئة الوجودية للجنة، نحتاج إلى روحٍ وازنة عامرة ثرية. إن القلب هو أثمن ما نملك، وهو المعيار الفاصل بين سعادتنا أو شقائنا في الدنيا والآخرة. وكما هو الحال في عالم المادة، فإنّ الأجسام كلّما كانت أثقل، كان تحريكها أو كسرها أو تدميرها أو إزالتها أصعب، كذلك الأمر مع قلوبنا وأرواحنا: فكلما ازدادت ثقلاً ووزناً، قلّ فيها الحزن والاضطراب، وغلب عليها الفرح والهدوء واللطف.

تشخيص خفة صحيفة الأعمال أو ثقلها

ينبغي أن نعلم أن مسألة الميزان حقيقة جوهرية لا مجرد اعتبار ذهني؛ فمثلاً، الصلاة معراج المؤمن،^٣ والقرآن شراب المؤمن الروحي؛ فإذا لم يجد المرء سعادة أو انشراحاً عند قراءة القرآن أو أداء الصلاة، فذلك يعني أن موازينه في فهمهما والانتفاع بهما لم تُملأ بعد. من لا يملك روحاً ثقيلة وغنية، يمكن لكلمة عابرة، أو خيال، أو وهم، أو منصب أن تهزّه بسهولة وتخرجه عن الصراط المستقيم. أما الروح الراسخة والقوية، ذات "الميزان" الثقيل، فهي أقل عرضة للانزلاق والتأثر السلبي. فالشخص الذي يغضب بسرعة لأقل الأسباب، أو ينزعج بسهولة، يدل ذلك على فراغ في "ميزان" صبره وتحمله. وقد أوضحنا سابقاً أن لكل فرد في حياته "موازين" متعددة تتناسب مع دوره ومسؤولياته، وبناءً عليها تُقاس أفعاله. والذين يهملون ملء هذه "الموازين" الروحية، غالباً ما يقعون فريسة للكسل والملل، وهما العقبة الكبرى أمام تحقيق النمو الروحي والوصول إلى السعادة الأبدية.

٣ قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «الصلاة معراج المؤمن». (قمي نيشابوري، نظام الدين حسن بن محمد، تفسير غرائب القرآن ورغائب الفرقان، محقق الشيخ زكريا عميرات، بيروت، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى، ١٤٢٦ هـ ج ١، ص ١١٤)

عندما نتحدث عن أهمية ثقل كفة أعمالنا يوم القيامة، فإن القرآن الكريم والروايات يقدمان لنا مجموعة من المعايير والمقاييس الواضحة التي يمكننا من خلالها زيادة قيمة وثقل أعمالنا. لكن تحقيق ذلك يتطلب منا، بالإضافة إلى تبني هذه المعايير والممارسات، أن نكون واعين تماماً بالعوامل التي قد تُضعف تأثير هذه الجهود وتُقلل من ثوابها بل تحببها. وفيما يلي، سنسلط الضوء على بعض هذه المعايير والممارسات التي وردت في النصوص الدينية كمفاتيح لترجيح ميزان الأعمال.

آثار الصلاة على النبي وآله في ثقل صحيفة الأعمال

تُعتبر الصلاة على النبي محمد وآله الطاهرين من أهم الأعمال التي تزيد من قيمة صحيفة أعمالنا يوم القيامة وتمنح شخصيتنا وقاراً وسمواً.^٤ هذه الصلاة ليست مجرد دعاء عادي، بل هي تتضمن التهليل، والتحميد، والتكبير لله عزّ وجلّ، وإنها بمثابة سلاح قوي نستعين به لقضاء حاجتنا الدنيوية والأخروية؛ فتأثيرها لا يقتصر على أجسادنا المادية فحسب، بل يمتد ليشمل الخيال والوهم والعقل وما وراء العقل وحتى حياتنا في عالم البرزخ ويوم الحساب. من خلال الصلاة على النبي وآله، ننال محبة الله ورضوانه، ونكتسب العزة والكرامة.

آثار الصدقة في ثقل صحيفة الأعمال

الصدقة تُثقل صحيفتنا يوم القيامة، وتمتد كظلاً وارفاً فوق أجواء ذلك اليوم الملتهب، فتجعل من أتون القيامة برداً وسلاماً علينا.^٥

أثر حسن الخلق في ثقل صحيفة الأعمال

إن لحسن الخلق آثاراً وبركاتٍ تعود علينا في هذه الدنيا، وهو في الآخرة مما يُثقل كفة ميزان أعمالنا وحسناتنا.^٦

٤ . قال الإمام الصادق عليه السلام: «أثقل ما يوضع في الميزان يوم القيامة الصلاة على محمدٍ و على أهل بيته.» (الحميري، عبد الله بن جعفر، قرب الإسناد، تحقيق مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، قم، مؤسسة آل البيت عليهم السلام لإحياء التراث، ١٤١٣ هـ ص ١٤).

٥ . قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم): «أرض القيامة نار ما خلا ظل المؤمن فإن صدقته تظله.» (كليني، محمد بن يعقوب، الكافي، طهران، دار الكتب الإسلامية، ١٣٨٩ هـ ج ٤، ص ٣)

٦ . قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: «مَا شَيْءٌ أَثْقَلُ فِي الْمِيزَانِ مِنْ حُسْنِ الْخُلُقِ...» (الطبرسي، علي بن حسن، مشكاة الأنوار، ج ١، ص ٢٢٣).

آثار الصمت في ثقل صحيفة الأعمال

يُعد الصمت من الأعمال التي لا تكلف جهداً يُذكر ولا تثقل الجسد، إلا أنها عظيمة الثقل ورفيعة القدر في ميزان الأعمال.^٧ ففي كثير من الأحيان، لا يتطلب تحقيق الخطوات الكبيرة القيام بأعمال شاقة ومضنية؛ بل يكفي المرء أن يلزم الصمت. فبالصمت وكبح اللسان، نستطيع أن نزيل الكثير من العقبات التي تعترض طريقنا.

في هذا الدرس تحدثنا عن مفهوم وأهمية ثقل صحيفة الأعمال. وقلنا إن خفة أو ثقل الصحيفة ليست مفهوماً نظرياً مجرداً، بل يُقاس بمقدار انسجام أرواحنا مع طبيعة الحياة في البرزخ والآخرة. كلما كان التوافق والانسجام بيننا وبين أسمى نماذج الإنسانية أكبر، كانت أرواحنا وصحائفنا أثقل. كما ذكرنا أن اكتساب روح راجحة وغنية يتطلب منا ملء موازيننا الأخروية. إن مقياس السرور والسكينة في الإنسان دليلٌ على خفة صحيفته أو ثقلها. وقد ذكرنا أمثلة لأهم الأعمال التي تُضفي ثقلًا على صحيفة الأعمال، كالصلاة على النبي وآله، وحسن الخلق، والصمت، والصدقة.

ماذا عنكم؟ ما الأوزان الأخرى التي تعرفونها، والتي يمكن أن تؤدي إلى تثقيل صحيفة أعمالنا؟

٧ . روي عن أبو ذر رحمة الله تعالى عليه: «قال لي رسول الله صلى الله عليه وآله: ألا أعلمك بعمل خفيف على البدن ثقيل في الميزان؟ قلت: بلى يا رسول الله صلى الله عليه وآله، قال: هو الصمت وحسن الخلق وترك ما لا يعينك.» (مجموعة ورّام، ج ١، ص ١٠٧)